الفصل الثاني

دولة مير محمد السوراني

يُعدّ محمد باشا الأمير السوراني (والمعروف أيضاً بمير كور) ـ الذي حكم كردستان الجنوبية (كردستان العراق) في الفترة ما بين (1828 ـ 1836م) ـ أكبر رجل دولة كردي في القرن التاسع عشر. كان مير محمد يشكل خطورة كبيرة على الإمبراطورية العثمانية، لا تقل كثيرا عَن خطورة محمد علي باشا في مصر.

وهذه الدراسة تسلط الضوء على شخصية مير محمد، وتحاول تقييم بعض الحوادث التي وقعت في عصره. فالإمارة السورانية هي إحدى الإمارات الكردية العراقية التي حكمت المنطقة الكردية المحصورة بين الزابين في كردستان الجنوبية وكانت ـ كشقيقتيها الإمارتين البوتانية والبهدينانية إلى الشمال والغرب، والإمارة البابانية إلى الشرق ـ تتمتع بالاستقلال التام عن الدولة العثمانية، وتعطي للسلطان العثماني الولاء الرمزي، لكونه يمثل الخلافة الإسلامية.

يرجع بعضهم نسب مؤسس هذه الإمارة إلى عائلة بغدادية[1]... ولكن البحوث الحديثة حول تاريخ الإمارة أثبتت أنّ أصل مؤسس الإمارة يعود إلى عائلة كردية من منطقة هوديان شمال غريب راوندوز[2].

---

(1) البدليسي، شرف خان. **شرف نامة في تاريخ الدول والإمارات الكردية**، الترجمة الكردية، ص 273.

(2) Kendal, *«Kurds under the Ottman Empire» in People without a Country- (London: 1980); pp. 27-28.*

وانظر: زكي، محمد أمين. **تاريخ الدول والإمارات الكردية** القاهرة: 1937، ص400-402.

حكومة مير محمد السوراني

في العام 1828م أصبح مير محمد باشا أميراً، ووصلت الإمارة في عهده إلى أوج قوتها، فاستطاعت أن تمدّ سلطتها إلى خارج حدودها التقليدية، فاحتلت مدينة أربيل وطردت البابانيين من رانية وكوي سنجق كما استطاع مير محمد أن يوسّع رقعة إمارته، شمالاً وغرباً، إلى منطقة بهدينان حيث أخضع دهوك، عقرة، سنجار وعمادية، كما استطاع أن يحتل لفترة وجيزة مدينة الجزيرة ونصيبين وماردين (المناطق الكردية التي تقع في تركيا حالياً). وفي عام 1835م اتجهت قواته شرقاً لتحتل المناطق الكردية في إيران واستقبله أهالي كردستان إيران كمحرر لهم[3]. لذلك يعدّه بعض الكرد رجلاً ذا مقدرة وقائداً كردياً لكل كردستان.

ويؤكد كلّ المؤرخين الذين تناولوا تاريخ الكرد في هذه المرحلة أنّ مير محمد كان رجلاً ناجحاً سياسياً، إدارياً وعسكرياً، ومن الطراز الأول. فمعاركه العديدة لإخضاع عشائر برادوست القوية في شمال راوندوز، والتي لم تخضع طيلة الحكم العثماني لايّة سلطة، والحملة الناجحة التي قام بها مير محمد لإخضاع الإمارة البهدينانية، على الرغم من وعورة بلادهم والحصون المنيعة فيها، كحصن عقرة وعمادية وسنجار، دليل على مهارته العسكرية. أظهر مير محمد عبقرية عسكرية نادرة حين رفض أن يورّط قواته في حصار غير مجدٍ لمدينة الموصل، والذي كان من المحتمل أن يستنزف فيه قواته، كما استنزفت قوات نادر شاه قبله بأربعين عاماً، وأظهر الأمير السوراني ألمعية عسكرية فائقة، حين استطاع أن يقهر قوات الصدر الأعظم العثماني محمد رشيد باشا في معركة (حرير)، التي وقعت عام 1834م، على الرغم من أنّ القوات العثمانية كانت متفوقة على القوات التابعة للأمير، من حيث العدّة والعتاد، وأكره محمد رشيد باشا على أن ينسحب ليلاً من ساحة المعركة، بعد أن ترك غنائم كثيرة للقوات الكردية[4].

---

(3) Kendal, pp. 27-28.

(4) موكرياني، حسين حزني. **ميرانى سوران**، هه وليز، 1962، ص83-84.

لم يكن مير محمد رجلاً عسكرياً يحب سفك الدماء، ولا محباً للقوة والسيطرة، بل كان قائداً ذا همّة وروية وطموح، عدّ نفسه أكثر أهلية لقيادة المسلمين الكرد من الدولة العثمانية التي بدأ الفساد ينخر في كيانها، وأصبحت أسيرة القوى الغربية، خاصة روسيا القيصرية وبريطانيا، وكان يرى في محمد علي باشا في مصر قائداً جديراً بالاحترام والتقدير والتقليد.

بذل الأمير محمد جهداً كبيراً لتأسيس دولة عصرية في كردستان تكون ندّاً للدولة العثمانية والدولة الإيرانية، ولأجل أن يترجم طموحه على أرض الواقع، قام ببناء جيش عصري مؤلف من عشرة آلاف فارس وعشرين ألف مقاتل من المشاة. وقد حرص مير محمد على أن يتمتع جيشه بقدرة قتالية عالية، وقد جرى تدريبه على أحدث سبل التدريب، كما زوّد بأحسن أنواع السلاح في زمانه، وأقيمت لأجله مصانع الأسلحة التي أنتجت ما لا يقل عن 200 مدفع[5].

في عام 1833م زار الدكتور روس، الطبيب الملحق في القنصلية البريطانية ببغداد، مير محمد في راوندوز (عاصمة الإمارة السورانية) وكتب عن سفرته يقول: «إنّ مير محمد كان متلهفاً للسماع منه الطرق العلمية لمكافحة الكوليرا في إمارته»، يقول الطبيب البريطاني إنّه انبهر بالمعرفة والحلم السياسي اللذين أبداهما مير محمد تجاه القضايا الدولية التي ناقشها معه. ويشير فريزر جيمس الرحالة البريطاني الذي زاره في راوندوز في العام نفسه إلى ما لمسه من الكفاءة في الأجهزة الإدارية داخل كردستان الجنوبية، ويقول: إنّ عدالته وحزمه كانا كفيلين بتطهير أجهزة الدولة العثمانية آنذاك، ويشيد فريزر أيضاً بالتنظيم الذي لاحظه في الجيش، والتطور النسبي في حالة العمران والزراعة[6].

يوعز الباحث الكردي الدكتور كاوس قة فتان، في دراسته عن إمارة سوران، سبب بروز نجم مير محمد إلى عدة أسباب منها:

1 ـ حصانة المنطقة (راوندوز وأطرافها).

---

(5) كيندال. مرجع سابق، ص27.

(6) J. B. Fraser. *Travels in Kurdistan* (London N/P), pp. 135-136.

2 ـ كانت الإمارة السورانية خاصة راوندوز على مفترق الطرق التجارية، الأمر الذي أعطى مير محمد قوة مالية وسياسية.

3 ـ كانت الدولة العثمانية في النصف الأول من هذا القرن في ضعف تام، بحيث إن محمد علي باشا في مصر احتل سوريا والأجزاء الجنوبية الشرقية من تركيا. فلولا تدخّل القوى الأروبية لكان بإمكانه أن يحتل استنبول؛ لذلك لم تكن الدولة العثمانية في موقع تحدّي مير محمد.

4 ـ إنّ الضعف الذي دبّ في كيان الإمارة البابانية التي كانت لمدة قرنين من الزمن أقوى الإمارات الكردية، أجبر الحكومة العثمانية على أن تغض النظر عن توسعات الأمير، على أمل أن تقوم الإمارة السورانية بما كانت تقوم به في السابق الإمارة البابانية، لكونها الرادع في كردستان الجنوبية، لمحاولات إيران من أجل إلحاق المنطقة إلى الدولة القاجارية.

5 ـ كان ولاة بغداد يرون في الإمارة السورانية قوة، لتوازن قوة الإمارة البابانية التي كانت أحياناً تهدّد بغداد.

6 ـ كانت الإمارة الكردية المجاورة تعاني مرضها المزمن، ألا وهو التناحر الداخلي؛ بَيْدَ أنّ الأمير محمد استطاع بدهائه وحزمه أن يخلّص الإمارة السورانية من هذا التناحر، فوضع جلّ جهوده نحو التوسع الخارجي[7].

وإن كنا نتفق مع الأستاذ قة فتان في كثير من النقاط، إلا أنّنا نرى أنّ من الأولى إعطاء الأهمية الكبرى، هنا، لشخص مير محمد، أكثر من عامل آخر في ظهور هذه الدولة الكردية.

أسباب سقوط الإمارة السورانية

إنّ أسباب سقوط الإمارة السورانية بحاجة إلى وقفة وإعادة نظر؛ فمعظم

(7) انظر: د. كاوس قه فتان. **جه ند ليكولينه وه يه ك له ميرووى**: بابان، سوران، بوتان ـ بغداد 1985، ص24 ـ 48.

الباحثين، خاصة الكرد في هذا المجال، يعتقدون بأنّ السبب الأساسي لسقوط دولة مير محمد كانت الفتوى التي أصدرها ملا ختي، وهو عالم ديني كردي، إذ أفتى بتحريم محاربة القوات العثمانية لكونها قوات خليفة المسلمين. وإنّه مما يؤسف له أنّ هؤلاء الأساتذة الأفاضل لم يقفوا مع هذا الادعاء (الفتوى) وقفة إمعان ونقد، بل نقلها بعضهم عن بعض دون تمحيص. وكاد الجميع أن يقبلها، وكأنّها حقيقة تاريخية ثابتة.

إنّ الأستاذ حسين حزني موكرياني ـ الذي كان بين عائلته وعائلة ملا ختي صراع ـ هو أول من أورد هذا الرأي، بصدد الفتوى وفحواها: إنّه في عام 1836م كان جيش مير محمد في أوج قوته، بعد عدّة معارك مع القوات العثمانية؛ ولكن ملا محمد ختي أفتى بعدم شرعية محاربة الكرد للقوات العثمانية التابعة لخليفة المسلمين، فأجبر ذلك مير محمد على الاستسلام للقوات العثمانية المهاجمة، وأُرسل الأمير إلى استنبول، وبعدها اغتيل، وهو في طريقه إلى راوندوز؛ وانتهت الإمارة السورانية بموت الأمير، بعد فترة قصيرة... نقل الباحثون الكرد عنه هذه الرواية، بدون نقد، باستثناء الدكتور قه فتان الذي لم يقتنع بها كما سيتبيّن فيما سيأتي، فالأستاذ موكرياني رغم مقامه العلمي وخدمته الجليلة للتاريخ الكردي، ورغم ثقافته الدينية، كان من الجيل الأول الذي تأثر بالأفكار القومية الغربية (العلمانية) التي تطالب بفصل الدين عن الدولة، كما استاء كثيراً من تسلط الطورانيين الترك على الدولة العثمانية في 1908، واستخدامها لخدمة أغراضهم العنصرية، وقمع الشعوب الأخرى خاصة الكرد؛ لذلك نراه يتخذ موقفا مُعادياً لعلماء الدين ودورهم في الإمارة السورانية[8]. ويبدي الأستاذ موكرياني أيضاً موقفاً معادياً وصريحاً من الدولة العثمانية، ويصفها بالتركية.

إنّ الدولة العثمانية أيام صراعها مع الإمارة السورانية (1828 ـ 1836م) لم تكن دولة قومية تركية، فالجيش وقادة المقاطعات والإدارة كانت بيد المسلمين الأوروبيين (أعضاء الإنكشارية) والعرب الكرد، ولم تتحول الدولة إلى دولة

(8) **ميرانى سوران**. مرجع سابق، ص83.

قومية تركية إلا بعد الانقلاب الذي قامت به جمعية الاتحاد والترقي في 1908؛ لذلك قد لا نكون منصفين إذا أعطينا الصراع العثماني مع الإمارات الكردية قبل القرن العشرين صبغة قومية ونعدّها صراعاً تركياً ـ كردياً؛ ففي حقيقة الأمر أنّ الجيش الذي كان يحارب مير محمد تحت إمرة الصدر الأعظم، كان معظم قواته من العشائر الكردية من منطقة سيواس، ماردين، دياربكر ومنطقة بهدينان، وحتى القائد العام نفسه لم يكن تركياً[9]. وحتى عن تأثير الفتوى المذكورة على القوات الكردية يعطي الأستاذ موكرياني رأيين مختلفين: ففي ص 84 يذكر الأستاذ أنّ تلك الفتوى رفضها معظم قادة الجيش السوراني والأهالي الذين أقسموا اليمين على الحرب حتى الموت، وفي ص 86 يدّعي الأستاذ أنّ فتوى ملا محمد ختي كانت لها آثار سلبية في إضعاف معنويات الجيش والأهالي، الأمر الذي أجبر مير محمد على الاستسلام... لماذا لم يسلم مير محمد نفسه للجيش العثماني انصياعاً للفتوى في أول الأمر، ثم يعود الأمير ليخضع لأمر الفتوى بعد عدّة أشهر؟... الجواب عن ذلك يكمن في التطورات اللاحقة، حيث شعر مير محمد أنّه ليس هناك جدوى من القتال كما سنبيّن.

ونحن نتفق في هذا الرأي مع الدكتور قة فتان، حيث يكتب: «ليس من المعقول أن تسقط إمارة قوية كهذه (إمارة سوران) بمجرد تأثير فتوى، فالأمير محمد قرر مع نفسه عدم جدوى مقاومة القوات العثمانية، ولم يكن للفتوى ذلك التأثير في صنع قراره»...[10]. وفي رأي الكاتب أنّ القول بقبول الفتوى عاملاً أساسياً لسقوط الإمارة السورانية استهانة بقدرة هذا القائد الكردي الحكيم، وحنكته الإدارية والسياسية. وإنّ الفتوى استغلها معظم الباحثين العلمانيين، للنيل من دور العلماء الكرد؛ باعتبارها دليلاً تاريخياً على كيفية استعمال الإسلام وتشريعاته لقهر الكرد أنفسهم، فنذكر على سبيل المثال لا الحصر، ما كتبه الأستاذ علي سيدو كوراني في صدد تعليقه على مسألة الفتوى المذكورة في تأثيرها على مستقبل الإمارة السورانية؛ يقول الأستاذ كوراني:

---

(9) زكي، محمد أمين، **تاريخ الدول والإمارات الكردية**، مرجع سابق، ص414.

(10) جه ند ليكولينه وه يه ك له ميَژووى، ص56.

obeikandi.com

«ومن المؤسف جداً أن يجد من يتتبع تاريخ الكرد أنّ بعض رجال الدين يسيطرون على رجال السياسة، ويكون بعضهم سبباً لنكبتهم؛ ليس لأنّهم يقصدون ذلك، بل لأنّهم كانوا ينساقون انسياقاً أعمى؛ فهذه إمارة تتسع هذا الاتساع، ثم تنقرض، دون أن يظهر عليها الهرم، أو يحول دون تقدمها قوة من القوى، إلاّ اللهم فتوى شيخ مخدوع»[11].

علينا أن نقف هنا وقفة سريعة مع الرأي المذكور آنفاً للأستاذ كوراني (الذي تعلّم في الجامعة الأمريكية في بيروت، وأصبح فيما بعد سكرتير المجلس التشريعي الأردني الهاشمي)، ونحب أن نلفت القارئ إلى حقيقة، وهي أنّه ليس هناك في الإسلام «رجل دين» و«رجل سياسة»، فالإسلام هو دين ودولة... وأنّه كان من الأولى بالأستاذ كوراني أن يمعن في مسألة الفتوى، قبل أن يتسرّع ويستعملها، ويعمّمها قاعدة على الدور السلبي المزعوم لعلماء الدين في كردستان. نعم إنّ علماء الدين هم بشر لهم نفوس أمّارة بالسوء، ولا ينكر أنّ بعضهم وقفوا مع الطغاة ومع القوى الرجعية، وخانوا قضية الشعب المسلم الكردي؛ ولكن هل الخيانة والخطأ مقتصراً على علماء الدين، دون سواهم؟ فالتاريخ الكردي مليء بنوابغ من علماء كردستان، الذين قادوا الحركة العلمية والثقافية فيها، ودافعوا دفاعاً مستميتاً عن قضية شعبهم[12].

ولنفترض أنّ الفتوى المذكورة كانت العامل الأساسي لاندحار مير محمد، ولكن مع ذلك لا نستطيع، بأيّ حال، أن نعمّم تأثير ذلك على الإسلام وعلمائه، لأنّ الأمير أو الحاكم في الإسلام هو الذي يتحمل تبعات قراره بعد أخذ المشورة. يجب إذا، في هذه الحال أن نلوم مير محمد، وليس العالم ملا محمد ختي، ونحب أن نعيد إلى الأذهان أنّ حرب مير محمد مع السلطان العثماني، كانت حرباً شرعية؛ لأنّ الأخير أخلّ بالعقد الذي التزمت به الدولة العثمانية في القرن السادس عشر، مع أمراء الكرد؛ فبموجب هذا العقد وافقت الدولة العثمانية على عدم التدخل في الشؤون الداخلية للإمارات الكردية، مقابل

(11) كوراني، سيدو علي. **جولة في كردستان الجنوبية**، القاهرة 1930، ص134.

(12) زكي، محمد أمين. **ناودارانى كرد وآية الله مردوخى**، علماء وأدباى كرد طهران، 1985.

تعهّد أمراء الكرد أن يعطوا الولاء الرسمي للخليفة، وعدد معين من المقاتلين الكرد للجيش العثماني في حروبها الخارجية[13].

إن قيام السلطان محمود الثاني بإرسال قواته ضد مير محمد دون أن يذكر هذا الأخير عصيانه على الخليفة، قد أخلّ بنصوص العقد؛ وبما أنّ الخلافة في الإسلام هي عقد بين المسلمين والخليفة (بعكس البابا أو أباطرة الروم والفرس الذين يعدون أنفسهم ظلّ الله في الأرض) تتحدّد شروطها بالقرآن (الكريم) والسنة (الشريفة) والعقود الشرعية، فبإمكان كلّ مسلم محاربة الخليفة إذا أخلّ بعقد شرعي[14].

يبدو أنّ سقوط الإمارة السورانية كان نتيجة حتمية للظروف الدولية التي استجدّت بعد 1833م في العالم الإسلامي، فالسلطان محمود الثاني القوي وذو النزعة المركزية، كان مصمّماً على تثبيت قوة السلطة المركزية في كافة أنحاء الإمبراطورية، وأنّه استطاع أن يحقق بعض النجاح في هذا المجال؛ فالإمارات التركمانية في الأناضول قد أزيلت قبل العام 1830م، وفي العام نفسه استطاع جيش الخليفة أن ينهي حكم الإمارة الجليلة في الموصل، وكذلك أن يحدّ من نفوذ إمارة المنتفك القوية في منطقة الفرات الأوسط، وأزيل حكم المماليك أيضاً في بغداد؛ وفي عام 1833م وقعت اتفاقية كوتاهيه بين السلطان ومحمد علي باشا في مصر، وأعطى ذلك السلطان فرصة للتفرغ لمهمة كبرى، ألا وهي إخضاع مير محمد الذي أصبح قوة تهدّد السلطة العثمانية.

وضع العثمانيون خطتهم على أساس أن يزحف كلٌ من علي رضا (والي بغداد) بجيشه من الجنوب إلى أربيل، ومحمد بيرقدار (والي الموصل) بجيشه من الغرب، وتتحرّك القوات العثمانية ـ والكردية الموالية للحكومة تحت قيادة محمد رشيد باشا من منطقة بهدينان باتجاه راوندوز؛ وبعد سلسلة من المعارك سقطت معظم قلاع الإمارة السورانية، وأصبحت راوندوز محاصرة من كلّ الجهات؛ لذلك قبل مير محمد بالفتوى الصادرة من ملا محمد ختي، على أمل

(13) بدليسي، شرف خان. **شرف نامة**، مرجع سابق، ص136-137.

(14) عثمان، محمد فتحي. **من أصول الفكر السياسي الإسلامي**، بيروت: 1988.

أن «يحصل على عفو من السلطان»، ويرجع إلى بلاده أميراً... فكرّمه السلطان، ولكن الوالي في بغداد دبَّر مقتله في طربزون، خوفاً من عودته إلى كردستان ليتحدّى سلطته[15].

كان للقوى الخارجية دور أساسي في حسم الصراع لصالح العثمانيين، حيث عُدّت بريطانيا، آنذاك، من دعاة الأمر الواقع، ورأت في توسّع نفوذ مير محمد خطراً على توازن القوى في الشرق الأوسط، لذلك أرسلت المبعوث البريطاني (ريجارد وود) إلى راوندوز، ليحثّ مير محمد على الخضوع للخليفة؛ كما استعملت بريطانيا نفوذها مع إيران وروسيا، لكي لا يدعما الإمارة السورانية في صراعها مع الإمبراطورية العثمانية، وقد توّجت جهود بريطانيا، في هذا المجال، ببعض النجاح؛ فالأمير محمد حين استسلم كان يعتقد أنّ الضمانات التي وعد بها ريجارد وود بحصوله على العفو له من السلطان واقعية، كما أنّ إيران أرسلت 10,000 جندي لمهاجمة القوات الكردية[16]، وأنّ القوت الإيرانية التي هاجمت كردستان؛ كانت تتذرع بحجة قيام مير محمد بمهاجمة الأراضي الإيرانية، ويؤيد المزاعم الإيرانية هذه الأستاذ (قة فتان)، ولكن الحقيقة تثبت وجود مؤامرة دولية يقودها الإنكليز للحفاظ على الإمبراطورية العثمانية، التي أصبحت «رجلاً مريضاً»؛ بيد أنّ تفتتها كان ينذر بولادة تعقيدات دولية قد لا تكون لصالح بريطانيا، وقد تقوّي نفوذ روسيا المتعطشة للأراضي العثمانية.

أدّت العوامل الداخلية أيضاً دورها في الإسراع في نهاية حكم مير محمد، إذ كانت القيادة الكردية إقطاعية التركيب، وإن خضعت هذه القيادة لأمير راوندوز رهبة ورغبة، فإنّ مصالحهم الآنية، الفردية الضيقة، جعلتهم يتحينون الفرص لإعلان التمرد على أمير راوندوز؛ فبدلاً من أن يحاول الاخير كسب ودّهم، فقد حاول اغتصاب إماراتهم بالعنف، كما أنّ الاستعمال غير المحدود للعنف تجاه العامة والحروب المستمرة أثقلت كاهل الناس، مما خلّف الأجواء

(15) نوار، سليمان. **تاريخ العراق الحديث**، م. س. ص108.
(16) المرجع السابق، ص106-107.

المؤاتية للقوة العثمانية لأن تكتسح الإمارة، وتسقط القلاع الكردية واحدة بعد الأخرى بسهولة[17].

موجز البحث

إنّ الأمير محمد كان قائداً عسكرياً وإدارياً في آن معاً؛ وإنّ هذه العبقرية العسكرية والإدارية التي اجتمعت في شخص هذا الأمير تدحض رأي بعض الشوفينيين من العرب والترك والفرس؛ الذين يرون أنّ الكرد يعوزهم رجال من ذوي الحنكة السياسية.

وإنّ سقوط إمارة سوران التي وحَّدت أجزاء كبيرة من كردستان، كان بالدرجة الأولى، حصيلة تآمر القوى الكبرى، بالتعاون مع القوى المحلية، وبالأخص بريطانيا الحريصة على بقاء الوضع في الشرق الأوسط على حاله، وذلك من أجل استغلاله لصالحها. ولم تكن فتوى ملا ختي ـ التي يستعملها البعض لتحقيق أغراض سياسية ـ ذات أثر يُذكر.

(17) قه فتان، مرجع سابق، ص53-54 .

obeikandl.com